حديقة المقتطف

رابندرانات تاجور

الفصل الثاني

الشاعر العالمي الملهم

محمود الخوري

تاجور الشاعر

العالي الملهم

لمحمود المنجوري

جديرٌ بمن يكتب في تاجور الشاعر ان يضع أمامه صورة تاجور الموسيقي الفيلسوف ففي الحق لست بقادر على انتزاع الناحية الشعرية من شخصية تاجور لأن الشاعرية فيه أصل متصل بشخصيته كموسيقي ملهم وكفيلسوف عالي وكمصور وفنان رمزي منقطع النظير

على ان تاجور يأبى ان يكون متفلسفاً في شعره ، وان كان شعره فلسفة في ذاته ، لأنه تفكير عميق ، وحديث معاد الى النفس . سمعته يتحدث الينا في مسرح الحديقة يوم احتفت به مصر في ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٣٦ يقول :

« لقد احتفل بي شاعركم (١) فأعاني بذلك على ان أنزع عني لباس الفيلسوف ، وأحدثكم كشاعر . وإذن فلا يتوقع أحد منكم ان أتحدث في فلسفة الهند . . . لقد وقفتم على بعض أمري ، وأحسبكم تريدون بحضوركم الى هنا ان تروا شخصي ، لتحضركم صورته ساعة قراءتكم شعري ، لتكون عندكم من الشعر الذي تقرأون أتم صورة ممكنة . ولقد يحسب بعضكم فيما قرأ من آثاري فيلسوف ، وربما كان لي حظ من الفلسفة حظ وجيه لكنه ليس حظاً يفيض على شعري ويبث بقصائدي الى قاع سحيق تتمرد مياه المحيط فلا يرى من خلالها ، إلا كما ترى الاسماك الصغيرة تسبح وسط الحية العظيمة . انما أنا كطفل من أهل الهند ، وفلسفتي لا تتعدى فلسفة الشعب . وتلك عندي فلسفة الشعر . . . »

« من أناشيد الريف عندنا أغنية الطائر المجهول ، وفي هذه الاغنودة يدعو أهل الريف الطائر المجهول فلا يجيب الدعاء ، ولا يعرفون من أمره إلا ما يدلهم عليه تصورهم . أما المثال فيعجز ولا يستطيع ان يصل الى شيء . هذا الطائر المجهول هو اللانهائية التي تتصورها ولا تحسها إلا بعد الانفلات في البحث عنها »

« وانت تدري السمك مثل أغنية الطائر المجهول ، أناشيد في الجمال لا تتداعى الى شعور ولا الى أفكار الفلاسفة . فالفلاسفة يحددون الجمال ويصورون له قواعده وتعاريفه . أما السمك فيراه سابحاً في هذا البحر المتطرف الموج ، وفي هذه السماء الصافية تارة وتارة آخر . وهذا الذي يراه السمك هو عين الجمال . أما تلك التعاريف والحدود فليست في شيء من الحقيقة »

« والوصول الى الحقيقة وسيلته الشعر ، فالشعر هو جواب الروح الخالدة ، هذه التي تحن الكمال في كل مكان . والشاعر هو الذي يرى الحقيقة ويحسب ويبينها »

« الحقيقة كما هي وليس كما يرتئي الوهم . والحقيقة من حيث هي جمال ليس يدانيه جمال . ألست ترى الى صورة امرأة عجوز أبدتها عدة معاصر ؟ إنك تنظر الى الصورة فتعترف بجمالها ، لأن المرأة العجوز ليست

(١) المقصود به شوقي بك

على شيء من الجمال . ولكنه جمال الصورة ، انها تمثل هذه الشجرة على حقيقتها . فالجمال إذن هو في الحقيقة لذاتها واذا عرفنا الحقيقة تفتحت لنا الابواب عن جمال الحياة . واذا عرفنا الحقيقة كنا أحراراً ، وكنا الشعراء ، وشخصيتنا هي أول حق فينا . وهذه حقيقة تبدو لك دائماً ونسعد بها أبداً . ونرى أننا في نحب ومن نحب ، ومن ثم كانت سعادة الحب في حرية الشعور »

« وبين الروح التي تتصل بحقائق الاشياء والادب الذي يعبر عن الشاعر اتصال دقيق ، فكلاهما يحس الحياة الخالدة ويعبر عنها . وإنك لتجد في أغنيات السامة عن طيرك أرواحهم معاني هذا الخلد . أنحب حبة القمح غاية لذاتها . كلا أنها هي واحدة في سلسلة خلد حياتها . ألست تراها تتفجر من حياة حبات من القمح . تتفجر كل منها مثل ما تفجرت الحبة الاولى . ونحن في نظام الحياة كهذه الحبة ، وروحنا تتصل بروح الكون كما تتصل قوة الحياة في الحبة بقوة الحياة في القمح جميعاً »

« وكما اقتسح أمامنا مدى الحب كنا به أكثر سعادة . فليس الابن عزيزاً على أبيه لذاته ، ولكن لان الاب يرى فيه نفسه . هو يرى فيه خلد حياته لأجيال مقبلة ، ويرى لذلك اتصاله بالاشياء أكثر صدقاً ودقة ، وانه لذلك يحمن في ادراك اللانهائية أكثر مما فعل من قبل »

« هذه الفلسفة الهندية تصور الحرية على أنها كمال الاتصال بما يحيط بنا . فاذا قمنا إتصالنا تمت حريتنا ، وهذه الفلسفة هي ما نسمعه في أغاني أهل الريف والقرى . ولقد تأثرت بها في بدء حياتي الشعرية أكبر تأثر ، ورأيت ما يرونه من ان الله يخاطب الناس عن طريق الموسيقى ، وانه أودع هذه الموسيقى في الازهار والنجوم وسائر خلائقه . ثم تتابعت بعد ذلك بأفراد لهم اتصال بجمال الروح العليا فازددت يقيناً إيماناً »

« ولقد كان لحادث حدث لي في سن الثانية عشرة أثر كبير في حياتي الشعرية . ذلك أني كنت يوماً وأنا في هذه السن أرقب الشمس تقرب وراء صف من الشجر ، فتحدثت الى نفسي ، أليست الشمس تظلم غداً لتغرب وتتجدد مطالعها ومغاربها ، وهي أبداً باقية ؟ كذلك نحن نطلع ونغيب ولكننا أبداً باقون في اللانهائية الشاملة لكل ما في الوجود »

فأنت ترى ان تاجور عندما أراد ان يحدثنا عن نفسه كشاعر لم يستطع ان ينزع عن نفسه لباس الفيلسوف كما وعد في مستهل حديثه . ولكننا نقدر له بأن حظ شعره من الفلسفة لا يلقي عليه غموضاً ولا يجعل ما فيه من الحقائق تائهاً في غمر من الغموض ، فلا يُرى الا كما تُرى الاسماك الصغيرة وسط اللج العظيم . ونقدر له بأن فلسفته كشاعر ، انما هي فلسفة الرجل الساذج الذي لا يدرك الحقائق من طريق المنطق والعقل ، وانما يدركها من طريق التصور والايمان . وان الشعر انما هو استجابة للروح التي تبحث عن الحقيقة والجمال ، وان الادب هو أسلوب الروح وطريق اتصالها المستمر بحقائق الاشياء

فرد الشعر عند تاجور ليس في عذوبة الخيال وجلال التصوير ، وانما مرده في الاتصال بحقائق الاشياء ، من طريق التصور والالهام الموسيقي ، الذي يتوحيه في الرئيات التي يدركها بحسه وشعوره ، فنواحي الشعر في تاجور ليست نواحي شعرية خالصة ، تستهوينا بعذب لفظها وجمال خيالها ، وانما سمو الفكرة ، وجلال الحقيقة مع روعة الخيال وجمال الاطار الفني للصور التي يريد ان يصورها قلبه الواعي الكبير ، هو طابع تاجور الادبي

وهو وان قرر في خطابه أثر البيئة الهندية فيه ، فهو ليس بشاعر هندي ، وانما خلقت منه البيئة الهندية شاعراً السامي عامًّا ، يلتمس الباطنة والثمين ، ويكره العسف ويأباه

ويبحث عن الحقائق ليصل اليها بأسلوبه الخاص ، هذه الحقائق هي أصل من أصول الفكرة الأدبية في شعر تاجور . وهو يرى بيئته التي تكفله صورةً للعالم جميعاً . فهو متصل بقلبه بالبيئة التي يعيش فيها ولكنهُ عندما يعطي هذا القلب الكبير لا يعطي البيئة التي أخذ منها وحدها وانما يعطي العالم كله كأسرة واحدة بل كفرد واحد . كانسان . وهو انما يخاطب الانسان على انه حقيقة حية خالدة في سلسلة متصلة الحياة بالوجود : —

« يجب عليَّ ان اذكر دائماً ان شخصيتنا مدفوعة بفطرتها الى البحث عن الشيء الجامع العام ، وان أجسامنا لتبيد وتسعى اذا ما تفلتت من نفسها ومن قواها المحدودة » (١)

« أي الهي إني ملكت السبيل في متابعة تلك الاصوات البعيدة التي تتردد الى مكان سحيق لا نهاية له دعني أجلس يا إلهي في هدوء أستمع في رفق الى كل تلك اللاهجائية التي تتعالى في ذات سمتي وسكوني إني أبتغي وجه الحقيقة دائماً . ابحث عن وجهك الجميل ، إلهي . لاتحجب نورك عن أسرار قلبي المظلمة . أشعلها ليستنير قلبي بنورك إلقدسة » (٢)

وهو يرجع فلسفة شعره الى فلسفة الشعب ، الى فلسفة البيئة التي تلهمهُ وتغذي فكره وخياله فما أكبره من شاعر يكبر وطنه الى مكان عزيز كريم ، ولا يتعصب له فيأخذ منه ليجودَ على العالم ، وطنهِ الكبير . ويرجع وحيه الى الكائن الملهم الخلاق الذي تدعو اليه أديان الهند ، دعوةَ ايمان وحب وحرية ، وهو يرى من السور التي تصدر عن نفسية الشعب حقيقة الفلسفة والشعر ، فأغاني الشعب هي مصدر صادق الحس لعاطفته وايمانه الشعري . ولهذا يدعو تاجور الى ان يتصل الشاعر بالاشياء التي تحوطهُ اتصال بحث ومعرفة ، وحب وايمان ، ليكون الشعر جواب الروح ونداء الحق ، ويرى شاعرنا ان أساس الحب هو المعرفة ، فليس لنا ان نحب شيئاً الا اذا عرفناه ، وشخصيتنا هي اقرب شيء الى معرفتنا ، ولهذا وجب على الشاعر ان يدرك شخصيته ويحللها ، ويحب فيها الخير ، ويرى منها مصدر الحق والكمال والجمال ، ويرى ان النفس التي تحب هي النفس التي تتمتع بأكبر حظ من الحرية

هذه الدعوة التي يدعو بها تاجور الى استكناه الشخصية وجعلها مصدراً للنظر والتفكير والقوة والكمال ، ليست كالدعوة التي نادى بها نيتشه الفيلسوف الالماني في القرن التاسع عشر ، تلك الفلسفة الصارمة التي وضعت اوربا فوق الاركان ولكن دعوة تاجور هي دعوة الحب والخير والسلام ، هو يدعو الشاعر ان يجعل من شخصيته حرمًا لبحثه ونظره وتفكيره وتأمله . وفي الحق ان هذه الدعوة ليست الا مذهباً هندياً قديماً ، بل انها أقدم دعوة دينية سادت الهند . فهو يبحث في تعاليم « يوبانيشاد » وهو سفر الفلسفة الهندية القديمة ، لرأيت هذا الذي يدعو اليه تاجور صريحاً جلياً . فاليوبانيشاد يبحث عن سر الفرد في روحه ، ويدعو الانسان الى ان يخلص نفسه من مظاهر الحياة الباطلة من الانانية والاثرة والعنف والانتقام ،

(١) سادهانا : بحث في علاقة الفرد بالجماعة (٢) رسالة الفجران

ليحل فيه المخلوق الطاهر النقي ،او الجوهر الاوحد العام الذي يطلقون عليه اسم (برهمان)

فالبيئة الهندية والفلسفة الهندية خلقت من تاجور شاعراً انسانيًّا عالميًّا ، يخاطب البشر كافة ، يدعوهم الى الايمان برسالة يحملها . وهو ملهم منذ شبابه لم ينحرف عن رسالته الشعرية قط ، ولقد بحثت في شعر تاجور فلم أعثر على بيت واحد مدح فيه أميراً أو سلطاناً أو أذل كبرياءه لاية قوة ، بل انه مع تواضعه ولينه عظيم متعالٍ يحب السمو في تواضع ويكره العنف ويأبى الرياء بل أنه لا يعرف العداوة لأحد ، ولم يؤثر شعباً على شعبٍ ، بل يرى الشعوب متضامنة في الخير والمدنية والحقوق والمساواة [١]

وقصائده التي نظمها في سلك شبابه لم تكن الاَّ هذا الوحي الغزلي الذي يشعل حماس الحب العفيف الذي يدنو بالقلب الى العبادة والتقديس ويلهمه العطف والخير والجمال[٢]

ولقد تأثرت هذا الشعر في جميع مراحل تاجور فلم أجده الاَّ وحياً صافياً لروح جامحة عامرة بالحب والايمان متعطشة لمعرفة ماوراء الغيب [٣]

فشعر تاجور هو شعر عالمي يعيش في كل وطن وبيئة وفي كل لغة وفي كل أسلوب ، لانهُ ليس حيًّا بلفظ تاجور الساحر ، ولكنه حي بمعانيه ، ووحيه وسمو رسالته ، وحيويته التي لا تنضب . فالشعر العالمي ليس الاَّ رسالة بشرية تؤدّي أدلة انسانيًّا صادراً من قلب الحياة ذاتها لتقود الحياة أجيالاً ضوية الى خيرها ومتاعها الروحي . والشاعر العالمي ليس هو مبدع الالفاظ ذات الجرس المترنل ، وإنما هو ينبوع حي متدفق لا يقهر ، نافذ الى مايطمح ، غلاب قهردون عنف ، باحث عن الحقيقة والخير والجمال ، مدرك لها أسرار الحياة

وفي . إنه ابشر جميعاً تنزهت عن كل لون وجنس . يا ميسماً على جميع الامم وان اختلفت ألوانها . وحد قلوبنا وألهمنا تبادل المحبة . وأيدنا بروح الحق والعدل

مصادر شعر تاجور

على إننا نستطيع لأول مرة في دراستنا لتاجور أن نرد شعره الى مصادر أدبية منها

[أولاً] — قوة الشباب واليقظة والحياة المتجددة ؛ فأنت ترى هذه العوامل حية حساسة في جميع اشعاره في مراحل حياته جميعاً يبحث عنها ويحن اليها كعين دائم لشعره

... هد كنت عندما أطوي الى كهوفي للسحر ، كالطيور التي تعيش في الظلام تتغذى منذ ولادتها على ... بالفكرة التي تصدقني من جوفه .

... انطلقت من سجن الشتاء ، من هذا السكون الرهيب المثل ، بحثاً عن الشباب الابدي ، دائماً عن شيء ... ما لا يشيخ به جسمي ، بحثاً عن بتسمات متفائلة تنبض بالبهجة والنور

... من يتلقى في شعب الزمن في رقصة شاعر يقود عربته وهو يغني في رقص وضرب أشعة ... دائماً المتفائل بالحياة .

على أن شعر الشباب وما فيه من غزل عفيف وسمو روحي وأخيلة جميلة وموسيقى

(١) البيت والعالم لتاجور (٢) البستاني وشذرات وهبة العاشقين لتاجور (٣) الزورق الذهبي

تشيع فيه فنّاً وجمالاً ، وكذلك ما انتاب شاعرنا من أزمات نفسية في شبابه عبر عنها بمزيج من اليأس والأمل والفرقة والايمان ، كل هذا الذي تلاقى في شبابه لا يزيد قوة ويقظة وحياة وتجدداً عما تاه في كهولته أو شيخوخته فكأنه قد صدر عن قلب ملهم لا يشيخ

وليس شعر تاجور الغزلي بهذا الشعر الذي تحن اليه العذارى فتقرأه في لوعة الحب وثورة الغرام ، ولا بهذا الذي يرتله الشباب في صبوة الصبى ونشوة الهيام ، ثم لا يلبث ان يطوى نسياً منسيًّا ، وإنما شعره الغزلي قدس للحب ، وديوان للحياة ، يضم بين دفتيه ما يهفو اليه الشباب وما يحسه وما يلمسه ايام حياته المبكرة ، من ألم وأمل ، ولذة ونشل ، وتطلع وانطواء ، وخيبة ورجاء . فهو يصور نزعات البشر في مراحلها الاولى ، وهو يبحث عن مثاه وسط بستان الأمل النضير ، ويحوي هذه الاغاني الحزينة التي رتلتها جموع الضحايا وهي تسير الى محراب الحب المقدس ، بل انها الاغاني التي سترتلها جموع البشر مادامت الحياة وما دام الحب . فيه صوت الأمل وفيه نذير الخيبة والفراق .. وفيه العودة الى الحب واليقظة المتجددة لقلوب البشر . وفيه الجرس الموسيقي الدائم الترتيل الذي يسمعنا انغام الحب التي لا تفنى[1]

[ثانياً] — جمال الطبيعة . ولقد كان نخصب خيال تاجور وسمو روحه وصدق عاطفته وصبره ودأبه على استكناه اسرار التأمل في الطبيعة ما ألهمه حقيقة الجمال ، على انها صفة من صفات الله صادرة الى الكون دليلاً على قدرة أزلية للخلق والابداع . ولقد أقبل تاجور على الطبيعة بنظره وقلبه ، وكانا على ظمأ فوردها حتى أصابا منها الري . أقبل تاجور على جمال الطبيعة واتصل منسجماً بها فأحس الحرية الكاملة . وآمن بأن كمال الاتصال بما يحيط به والاندماج في الكون اندماج اللحن في الأغنية الكبرى . آمن بأن هذا الجهد الروحي هو تعاون للوصول الى الحقيقة . والوصول الى هذه الحقيقة هو المتاع الحق بالحرية والجمال . ولبلوغ هذه الغاية ولاكتناه الحقيقة التي تقفل أبوابها أبداً دوننا يجب ان نبحث وان نطيل البحث وان نتأمل ، وان نتصل بالاشياء المحيطة بنا . فاذا اتصلنا بالاشياء عن طريق روحنا كشف لنا عما فيها من سر وجمال ، وأسلمتنا للحق المطلق ، وعندئذ نشعر بها تمام الشعور ونحس هذه اللامتناهية المنتشرة في الكون كله والتي لا نراها بعين غير عين الروح . وانك لتقرأ الوصف في شعر تاجور ، فتلمس بحسك واحساسك وبصيرتك جمال الحقيقة في اطار صادق يبرز المعاني التي يريدها الشاعر ابرازاً حقيقيًّا ، وترى الالوان منسجمة مع الاصوات المختلفة التي تنبثق من روح الشاعر الكبير . فقلب تاجور هو مرآة محدبة للطبيعة تنعكس عليها بأسرارها ، ولكنه انعكاس حي ، ترى فيه الصورة ذات عناصر حية من ألوان وأصوات وأضواء

(١) أشعر تاجور في البستاني وهبة الدشنبر والطير الحر وغيرها

وهو يحب الطبيعة ويلجأ اليها منعزلاً مفكراً متأملاً ، ويجلس بين أحضانها منفرداً يستكنه أسرارها ومباهجها ويستمع الى أصواتها المتعالية من صمتها الأبدي — وهو يحس في تأمله بعظمة الحقيقة وسر إبداع الكون . وكانت الطيور تألفه في مجلسه فتهبط بين يديه كأنه قطعة من ذات الطبيعة ، وكان يتركها في عبثها مصغياً الى ترتيلها دون أن يزعجها ، وكان لا يبرح مكانه حتى يسمع من الصمت موسيقى تنطق بالحس وبالحقيقة ، ومن الجمود حركة تهمس بالشعر والحكمة . وكان يؤوب الى داره مفكراً مرتلاً أناشيد جديدة ، فتاجور شاعر تحل برحيق الطبيعة دائماً ، وهو يصف وقفة الشاعر أمام الطبيعة :

« بينما تمر العصور ، وتنطوي الاحقاب ، وتتبدل الفصول طاماً على طام ، وتتأثر النحل الصيف أينما حل بالياسمين ، وبينما القمر يغازل الزنبق والاقحوان في سكون الليل وهدوئه ، وبينما يلهب البرق بشلاله المحترقة خدود السحاب ، يقف الشاعر وحيداً في زاوية منعزلة ، يناجي بصمته الاشجار والازهار والهواء والنجوم . يقف صامتاً كأنه يرى فيه وسط أحلامه وتصوراته زهرة تتفاءل وتذيل كما يتضاءل نور القمر المنير ، ويحس أنه يهيم في فضاء الله الفسيح كما يهيم الطيف لا يهبط له ولا يستقر

« واذا ما أتى أول مساء من الربيع ، وطلع القمر من الافق الغربي كأنه فقاعة ظهرت اثر غرق الشمس في دارة الافق ، واذا ما خرجت القرية تروي نبات الحقل بماء المساء ، وأخذتها تطعم يدها الناعمة طيبها الغرير ، وجارتها تداعب طاووسها المختال . يقف الشاعر يتغنى :

« ألا قصت يا فؤادي لاسرار الوجود ، هذه زهرة السوسن ما اصفرت وجناتها إلا لما بها من حب وهيام بذلك القمر المنير ، وهذه زهرة النرجس ما ابتسمت ثغرها الحلو واسفرت عن خدود رياة ناعمة إلا لتحيي الشمس منبع الحياة وسر الوجود . ألا ان الجمال حقيقة سافرة لكل من يتدبر

وإن لهمس هذه النحل باذن الياسمين ساعة الصباح الهادئة لمعنى مثنوياً عليه . ولكن الشاعر يدركه

وتغرب الشمس وتتوارى في أفق مورد مذهب ، ثم يهيم القمر متكاسلا في دلال بين النجوم ، بينما يعز الغدير مسرداً الى القوس ان يأخذ من الشاعر حذره ، وتعشق السواري مع الشباب في طرب وغناء :

أقبل الربيع ضر الامل

ثم يقول المغني في فتنة ثم في صيحة عالية :

يا أسرار الحب هيا انطقي وفيضي من قلوبنا الى الفضاء الفسيح

وصفحة الطبيعة أمامي « لوحة متجددة الجمال يرقبها الشاعر بانتظار الهامه ثم يفصح عنها بترنيم وتلحين وموسيقى دون استعمال أصباغ او ألوان »

واليك صورة من صور الطبيعة أبرزها تاجور في إطار جميل :

« . . . والسماء الصيفية تبدي تجومها في دأب لا ملال فيه ، هي كل مساء جديدة العهد بنجومها ، كالطفل يأخذه الدهش كلما أعاد الكلمة التي بدأ بها نطقه وهو لا يزال يتلعثم منه اللسان غير مفصح لم ينطق ولكنه يمشي الى منطقه في سرور متدفق وسيح فياض

والليل للمطر تمتد فيه الظلمة ، وتكثف فوق الروح . وتحتجب الارض الناعسة بحجاب من فوق حجاب يزيده المطر ظلاماً ورذاذاً . هذا المطر ، لم يكن غير صوت الطبيعة جهرت به لغضبتها ، ترى في هذا الليل الحالك الاشجار صفات منتحبة بسلاب من الظلام ، والاغصان مبعثرات متعبات فوق الطرق حائرة مضلوبة الهامات ، كأنهم رؤوس مبتورة عن أجسادها تموء في يم متدفق تتيح لا تبدي غير الصمت والذعر . وتنثر من فوق هذا رواتج الخشخاش وطيبة خاثرة والارض مبتلة من حولها . ثم ترى العبد مشرداً بهمته وحالاته فوق هذا الليل ، فذاً في الظلام وقاره باسطاً وهبته على المساكن والمجارم فتجمعه في القرية . هذه صفحة تؤخذ الطبيعة من نفسها كل مساء ينظر اليها الموسيقي فتلهمه لحنه والشاعر فتلهمه بنظمه والمصور فترصد له الالوان والاصباغ »

على ان الطبيعة ليست هذه المرئيات التي تملأ الوجود بحياتها والتي خرج منها العلماء ظواهر وقوانين علمية ، ولكن الطبيعة أعمق مما يقول عنها هؤلاء العلماء . وما هذه الظواهر التي خرجوا منها قوانينها التي تسير عليها الطبيعة ، ما هذه العلوم كعلم الفلك والضوء والمغناطيس والكهرباء والسرعة والحركة والكيمياء وطبقات الارض والنبات والحيوان وعلم النفس الا المظاهر الواضحة التي استطاع الانسان ان يبرز فيها قوة عقله ومدارك ذكائه ، ولكن للطبيعة ناحيتها الباطنة حيث تسكن فيها روح القدرة المبدعة الكائنة التي تشمل الحياة والانسان بانسجامها العام الذي يربط جميع الكائنات برباط وشعور واحد ، هذه الطبيعة هي التي شغلت ادراك تاجور فتكلم عنها في محاضراته واستوحاها في شعره وفلسفته . ويقول تاجور في هذا :

« ولما كان على الانسان ان يتصل اتصالاً مستمراً بالقوى الحيوي للطبيعة التي حوله ، أصبح عقله حراً طليقاً غير مقيد بالرغبة في ان يحد ممتلكاته ويحددها بناء الاسوار ، ليحصر متقياته في حوزة هذه الاسوار (التي يسميها البيئة او الوطن) لم تكن رغبته في التملك والحيازة ، ولكن كانت رغبته في فهم الاشياء وإدراك حقيقتها وتوسيع نفوذ ضميره عليها بان ينمو هذا الضمير نمواً متصلا باتساع آفاق الطبيعة التي تحيط هذا الانسان . وشعر بان الحق هو ادراك شامل للكائنات ، وان التفرد المطلق كائن لا يشبه شيء في الوجود ، وان السبيل الوحيد للوصول الى الحق ، انما في ان تتخلل بنفوسنا كنه الاشياء لندركها . ولقد كان إدراك هذا الانسجام بين روح الفرد وروح الكل هو الهدف الذي بذله حكماء الهند القديمة منذ سكنوا الغابات وأقاموا لهم فيها مدنية خاصة لا تعرف حدود للمكان والزمان كما كانت مدنية الاغريق القديمة التي نشأت في المدينة بين الجدر والاسوار »

هذا ما يقرره تاجور في محاضرة القاها على تلامذته في حديث له عن « علاقة الفرد بالمجموع » استعرض فيه المثالية الهندية منشأها وحقيقتها وأثرها في تكوين فلسفة الهند وقد نعود اليه بعد حين حينما نتكلم عن الوحدة الروحية والمساواة في فلسفة شاعرنا الكبير

واقوال تاجور في الطبيعة شائعة في مباحث كثيرة له ، واليك فقرة من محاضرته التي عنوانها « ادراك الجمال » انه يقول فيها

« والصدق مسكة نتوخى بها معرفة قوانين الطبيعة ، بينما مسكة الذوق الجمالي هي التي ندرك بها ما في الطبيعة من ائتلاف وانسجام . وعندما نستخرج القوانين من الطبيعة نبسط ولايتنا على القوى الطبيعية فتصبح أقرباء بهذه الولاية العلمية ، وأما عندما نستبطن بواطن القوانين من ادراك طبيعتها الادبية للكائنات فنحن نبسط ولايتنا على النفس ونصبح أحراراً بهذه الولاية على مدركاتنا ، وهكذا على قدر ما ندرك من أسرار طبيعية ، وعلى قدر ما يلاقي مع فيها نتمكن لذة التعرف بأسرارها ونصيب منها بصورة روحية جمالية تصبح طابع أدبنا وفنوننا وفلسفتنا »

[ثالثاً] — الموسيقى : وكما ان الطبيعة كانت مصدر شعره . فهي ايضاً مصدر الهامه الموسيقي ، انها لوح الموسيقى نمرّت فوقه أرقامها . وسحات فيه بصوابها وهي تتمايل من

احشاء الليل البهيم مختلطة في ذاتها لتصدر صوتاً واحداً يملأ السماء معنىً وجلالاً»

وأني لأدع تاجور يحدثنا حديثه العذب عن الطبيعة والموسيقى والفن من محاضرة له بعنوان « ادراك الجمال » ، جاءت فصلاً في كتابه « سعدهانا » أو استكانة نفس فاستمع اليه يقول :

«هذه صفحة الطبيعة أمامنا ، والشعراء للبيون هم الذين يرقبونها بمنظار الهامهم ، ويتوخون الافصاح عن الكائنات في ترقيم للوسيق وتلحينها . وهم فيما يفصلون صبغة الالوان في تبيان للناظر للنشورة أمامهم ، أو رسم ما في الطبيعة من ألوان مختلفة دائبة التغيير والتبديل على لوحة السماء

ولهؤلاء الشعراء بوحيهم ، فالمصور لابد ان يضم الى جانبه لوحة يصور فيها ، وأقلاماً وأصباغاً يستعينها وأول وضع ترسمه ريشته على اللوح لا يمكن ان يصور فكرته كاملة حتى اذا ما انتهت الصورة وكملت تم نفى للصور الى سبيله لبثت الصورة من بعده كالارملة حزينة وحيدة لامين لها يغير كرامتها ثم تمتد أيدي الليل الى هذه الخلجات للتوالية التي يثير للصور في ألوانه وأصباغه فخلق منها ما أنشأ وصور

وأما الغني فأمره على العكس من هذا للصور . إذ نجتمع له أسباب فنه فيصدر التلحين عن نفسه فيرقه ويسحره وليس هذا التلحين بالشيء الغريب عنه دفع الى نفسه للتصنيف قسراً ولكنه ينشأ والفكرة في غيبة واحدة . فالفكرة واللحن توأمان لا يفترقان وليس لاحدهما من سبق على الآخر وهما لا يتنافران في قلب للوسيقي أبداً . وقلب للوسيقي مجبول على افشاء أسراره في للوسيقى والتلحين لانه لا يعاني في التعبير تكاليف مادية غريبة في الافصاح عن نفسه كما يعاني المصور جمع الالوان وتأليف الاصباغ او كما يعاني الشاعر أوزان الشعر واختيار الالفاظ . ومع هذا فلا تزال للوسيقى تصير الى الكمال كأي فن من الفنون الاخرى . على أنها كانت في كل طور من أطوارها رقيقاً تبع جمال الفنون جميعاً . لان مادة التعبير ليست إلا حملا قليلا يتوه من جمال فكرة الفنان وسموها . فالالفاظ في ذاتها حمل مرهق لان معانيها تجهد التفكير عند فهمها ، ولكن للوسيقى متعالية عن ذلك عموماً كبيراً انها تسمو عن ان تتجسد في اللفظ وما كانت لترهق فكراً ليفهمها ، وما كانت مغلقة في أسلوب او وزن يشقيها او يبعد الروح عن ادراكها . ولكنها وحي من الروح صدر والى الروح يهبط دائماً ، وانها لتعبر عما لا تستطيع أن تعبر عنه الالفاظ . ولا انفصال بين الموسيقى وبين ألحانه فهي قطعة من نفسه متصلة بها أينما حلت هذه النفس فتنغما يغني للوسيقى الى ربه تغني معه الحانه وأغانيه إنها كالاعشاب والصلاة والابتهال يلازم الروح في جميع رحلاتها . إنها تسكن معه وتؤنسه حيث الالتئام الابدي حيث تستتر الحياة بين يدي خالقها

فالالحنية لا تنفصل عن منشيء . إنما لم تكن محبوكة من مواد غريبة ذات حيز ولكنها مناهج للوسيقى ومسرته وأنه للنشيء جبل في وضع ان يصيبه فناء أو زوال هي قلبه العظيم ينبثق به الوميض فيعم الوجود نور

وفي كل جهد فردي في للوسيقى كل ملحوظ . وهو الهام لانجاز ما كان مقصوصاً في عالم للوسيقى الجمعي . وليس لاي من تلاحينه كلا منفرداً ولكن كلا من هذه الالحان يعكس في نفوسنا مناهج اللانهائية . والموسيقى كائن له وحده تصور الكمال المطلق

وماذا يكون الامر لو عجزنا عن اشتقاق المعنى السري الذي يوحي اليه هذا الائتلاف العظيم الذي تمكنه الموسيقى ؟ أليس هذا المعنى الكبير كل يد تلمس الوتر فتنبعث منه في لحظة واحدة جميع الالحان الموسيقية من ذات نفسه واحدة ؟ أليس هذا اللحن الجامع الشامل هو آلة الجمال هو الخفر والدل الذي يبعث من قلب الحياة ليحل قلوبنا من غير موج او عناء !

فالموسيقى في نظر تاجور اتصال دائم بين القلب البشري وقلب الطبيعة الكبير ، وهي لغة الفطرة الاولى للمعاني التي تشملها الطبيعة شمولاً كاملاً متصلاً بحياة الانسان . ولما كانت

الحواس البشرية هي التي تدرك وتلهم قبل ادراكه الحقائق من طريق التفكير والعقل استطاع الانسان ان يكون بحسه الفطري موسيقيًا يعبر عما يحس من جمال الطبيعة قبل ان يُعبر عنها من طريق عقله

فالموسيقى أصل من أصول فلسفته وفنه هي في نفسه يسمعها خلال تأملاته وينصت اليها تتعالى من الزهر والشجر والنجوم وصمت الليل وسكون الطبيعة وهدأتها بل هو يلتمسها في في سائر الخلائق ، ويرى الاتصال الروحي بالمرئيات انما يأتي من طريق الانسجام بها والتعالي على نغم الموسيقى . وقلب تاجور من العظمة والسمو بحيث يسع ألحان الوجود جميعاً ويفهم أسرار الكائنات وأسلوبها في الحياة :

***

وليست الموسيقى في أسلوب تاجور هي مصدر جمال أسلوبه فقط، بل ان موسيقية روحه وإيلافها والتحام تصوراته مع الاضواء المشعة من قلبه عليها ، وترتيل آماله ومخاوفه وهمسات قلبه وحنينه الدائم الى الجمال والحقيقة، كل هذا يكون ايلافاً موسيقيًا هو مصدر صادق من مصادر الوحي الادبي لشاعرنا العظيم

وكما ان تاجور موسيقي بالفطرة فهو موسيقي بالتجديد والصنعة والفن، فلهُ نحو ٣٠٠٠ قطعة لحنها تعزف على البيان وترتل ترتيلاً وفيها صلوات وقرابين صوفية وفيها ما يصور حقائق الكون المختلفة ، ويمثل عواطف البشرية وفيها ما يرسم أخيلة الشاعر . وهو قبل ان ينظم الشعر يستوحي الهمس ثم الجرس وينطوي الى نفسه يسمعها ما يجول في دخيلتها ثم تراه ينظم اللفظ مرتلاً منظوماً في ايلاف عبقري

فهو عظيم في الموسيقى كما هو عظيم في الشعر ، بل أن موسيقاه وشعره وحدة فنية لا تتجزأ . وأغانيه تغنى في جميع انحاء الهند حيث يتكلم الناس اللغة البنغالية . بل ان أغانيه تقرأ بجميع اللغات الحية

وكان في صباه المرتل لمغني طيكل القرية . اذا حضر صلاة ورتلها فاض الهيكل بالمصلين ليروا قدس الروح جاثمة في صبي ناحل واسع العينين يشع منهما وحي وجمال وتأمل وورع وخشوع وليستمعوا الى صوت بريء فيه النقوى والغفران تعلمهم يصعدون به الى عالم الحقيقة والابدية

وابحاثه في الفنون والموسيقى تكشف عن أن له رأياً في الموسيقى ، فهي وسيلة أدبية تصل الروح بحقائق الاشياء والحقيقة هي دائماً موضع الايمان . وليست الموسيقى غاية وانما هي أسلوب جميل للوصول الى الروح المخالدة التي نحبها ونعشقها ونعبدها

ولن تكون الموسيقى عباً على التفكير لأنها قد تكون مرحاً روحيًّا كما قد تكون الدموع المتناثرة والتوبة والغفران :

أنا كأس طافحة بالنغم

أنا مزمار من العناب حملته يا إلهي في طوافك التلال والهضاب مشبعاً فيه أغاني أبدية الجدة

ألا فأنيل يا إلهي بتوبة أقدسها الساعة بقلب جريح ملهوف . وأسبح من أم كتابي أيام اليتم التي قضيتها في غير تأمل في ذاتك العالية . وأمدد ذلك الاجل الصبر الذي تذوب فيه النفس الحائرة حتى ترتمي في أحضان رحمتك والتي يا إلهي عليه نور ك الساطع المقدس

وهو يقول في الموسيقى :

« ألا ان الموسيقى هي أسمى أشكال الفن ، وهي أصدق تعبير للجمال . وأقرب لغة لاخضاع القلب

إن الموسيقي يستمد جميع قواعد الفن من قلبه ، انه يخوض في أمواج حياته ليأتي بالنغم . وقواعد الموسيقى ليست أشياء خارجة عن النفس عند التعبير ، كالرسم والشعر فهما في حاجة الى أداء والى تعبير مادي بالقلم واللفظ إن فكرة الموسيقي والتعبير عنها مرتبطان ارتباط التوأمين ، هما معاً دائماً . وقلب الموسيقي سر غير مكتوم . إنه لا يستطيع ان يحفظ آلامه ، ولكنه لا يتألم من أشياء خارجة عنه بل يتألم من نفسه ومن نفسه لان آلامه تصدر من طبيعته ، من أعماقه ، من هذه الطبيعة العالية المتصلة بالروح المقدسة »

وقد يكون للبيت من الشعر معاني كثيرة مختلفة ، وقد تكون لصورة مراي متناثرة ، وقد تذهب العقول مذاهب مختلفة في فهم الشعر والتصوير ، ولكن النغم لا يحتمل ولا يسع إلا معنى واحداً انفصل من نفس الموسيقي ليؤديه

والموسيقى هي تحرر من رق التعبير ، فهو يقول عنها

« ألا ان الموسيقى هي أرقى وضع لفن لذلك كانت أول تعبير وأوضح بيان عن الجمال في شكله وروحه . وهي أقل الاوضاع حلا بأثقال الدخيل والغريب عن الفن الخالص . على أننا نشعر عندما نفسر معنى الموسيقي بأن مظهر اللانهائية قد حد في وضع من الاوضاع المبتدعة ، وان الموسيقى نفسها ليست الا وضعاً محدوداً من اللانهائية ، فهي الصمت البليغ الذي تلهمه الطبيعة فترنا بمباهج مناظرها »

فالموسيقى هي وسيلة تاجور لادراك الحق والجمال ، وهي وسيله في العبادة والزلفى الى الله :

أنت الذي أريده أنت وحدك
لقد ذكرتك دائماً في أغاني لا تنسى
أي إلهي . أي زعيم الشعراء !
اني أجلس تحت قدميك الا تكون
حياتي شيئاً سهلا منسجماً
كالبراع الثقب الذي تملؤه الحياة
نغماً وموسيقى

« فيحت صلة »